حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٧ (عدد يوليو – سبتمبر ٢٠١٩)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

صورة صلاح الدين الأيوبي في شعر ابن سناء الملك
(دراسة نقدية تحليلية)

د. هند ماهر أبو العطا إبراهيم *

أستاذ الأدب و النقد المساعد- قسم اللغة العربية - كلية العلوم الإنسانية- جامعة الملك خالد

المستخلص

يعد العصر الأيوبي من العصور التي غفل عنها الباحثون بين العصور الذهبية للأدب والنقد والعصور الحديثة باقترابها من حياة الناس وما تعكسه من واقع معيش، وربما ساعدت ظروف ذلك العيش على التغافل عنه بما كان فيه من تشرذم الممالك الإسلامية وتنافس الأمراء ـ بل وتناحرهم، وفي تلك الظلمة كان يلوح بعض النجوم بين الحين والآخر، فكانت تهدي الناس إلى تراثهم الزاخر لكي يكون نبراسا يهديهم إلى الصراط المستقيم، ومن هذه النجوم وقع اختياري على ابن سناء الملك .

ومن موافقات القدر تزامن الشاعر مع عهد صلاح الدين، ذلك الفارس الذي أعاد للأمة مجدها بما حققه من انتصار على الصليبيين واسترداد للمسجد الأقصى بعد بقائه في الأسر عقودًا طويلة، وذكّرها بما لها من ماض عريق يستحق الاهتداء به واقتفاء أثره .. فوقع الاختيار ـ في أوراق هذا البحث ـ على مدائح ابن سناء الملك في صلاح الدين؛ لأبرز النهضة الأدبية والنهضة السياسية لذلك العصر .

الكلمات المفتاحية : أدب، تصوير، بطولة، سيف، انتصار، إقدام .

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٩.

مقدمة:

الشعر ذاكرة الشعوب الذي سجل وقائع حياتها، فمجَّد مآثرها وبكى سقطاتها، ورفع شأن رجالها وعاداتها وحطَّ من شأن خصومها، ودفع الشعوب بوقود الحماس لفعل ما قد تأباه العقول، ووضع الحكام أمام مسئولياتهم تجاه الشعوب التي يحكمونها فاستنفروا الطاقات لتحقيق مجد منشود أو استرجاع كرامة هُدِم جانبها ..

وإذا كان توصيف الشعر ـ آنفًا ـ يصدق على معظم الأمم، فإنه يزداد على الأمة العربية، تلك الأمة الأميَّة التي احتفلت بالكلمة، ذلك السحر الذي كان يُقيم الحروب ويُشعل الثارات، وربما يُلين قلب البطل المنتصر فيعفو عن سبايا بالمئات أو الآلاف، أو يرد أرضًا سطا عليها بعد تجهيز الجيوش وإنفاق مقدَّرات البلاد عليها .. فكان لتفوقهم في فن الكلمة أن تحدَّاهم القرآن الكريم بكلام من جنس كلامهم، فكانت معجزة القرآن الخالدة الذي نزل في تلك البيئة ـ البيئة العربية .

وإذا كان الشعر يخلِّد الممدوحين ويُبرز بطولاتهم بما حققوه من انتصارات وفتوحات، فقلما تلد الأمة العربية بطلًا مثل صلاح الدين بما وُصِف به من صفات نفسية أو قيادية جعلته ينتصر على الصليبيين ويعيد بيت المقدس إلى حوزة العرب بعد غيابه عقودًا، ولحُسن الطالع فقد تزامن مع سطوع نجم صلاح الدين شاعرُنا ابنُ سناء الملك، ذلك الشاعر المصري الذي تتلمذ على يد القاضي الفاضل وقربه من صلاح الدين الأيوبي ؛ فخصه بعدة مدائح هي موضوع البحث، فأظهر فيها براعته في التصوير، ودقته في وصف الأحداث والتأثر بالقرآن والسنة والشعراء السابقين، ولا يمنع أن يتلبَّس كل ذلك بخيال الشعراء الذي كان مقبولا من الشاعر على قدر توقير السامعين لمقام صلاح الدين وانتشائهم بانتصاراته، فكانت أشعار ابن سناء الملك تُطربهم وتزيدهم خِفَّة وانتشاءً .

ويرجع اختياري لهذا الموضوع (مدائح ابن سناء الملك لصلاح الدين الأيوبي دراسة فنية) لعدة أسباب، منها :

١. بلاغة شعر ابن سناء الملك في مدائحه لصلاح الدين الأيوبي في عصر شاع فيه التكلف بالزخرف اللفظي حيث أجاد شاعرنا الصناعة اللفظية والمعنوية .
٢. كان شعره ناتجًا عن ملكته الشعرية وما تمثله من الشعراء السابقين كأبي تمام والمتنبي وغيرهما، فاستطاع مزج ثقافته بمَلَكته ليُنتج للمكتبة العربية ديوانًا فريدًا تعددت أغراضه إضافة إلى أنه سجل الوقائع التاريخية للفترة التي عاش فيها، وحفظ المآثر النفسية لصلاح الدين .
٣. تعد مدائحه لصلاح الدين بمثابة سجل تاريخي ـ صادق ـ لأهم الوقائع التاريخية في عصره نقلا عن شاهد عيان (وما راءٍ كمن سمعَ) .
٤. عبر شعره عن روح المقاومة في عصره ليلهب روح الحماسة في نفوس المسلمين من أجل الحفاظ على البقاع الإسلامية .
٥. بيان تخاذل بعض القادة العرب المعاصرين لصلاح الدين عن نصرته، واستعصائهم على توحيد كلمة العرب، بل وانضمام بعضهم غلى معسكر الأعداء ضد المعسكر العربي الإسلامي الذي شاءت الأقدار أن يكون صلاح الدين في مقدِّمته .. وآثرتُ تبيان ذلك ـ كما شاء ابن سناء الملك ـ لكي يبين ما كان عليه الواقع العربي آنذاك من متناقضات بين بطولة وخزي، وإقدام وإحجام، وولاء للأمة وولاء مضاد لأعدائها، كل ذلك يزيد موقف صلاح الدين رفعةً ويزيد شعر شاعرنا صدقًا وثراءً .

أما منهج البحث ـ كما سبق ـ فهو المنهج الوصفي الذي يتحرى الوصف والتحليل لبعض الظواهر الأدبية التي وردت في مدائحه لصلاح الدين من تصوير أو بديع أو مبالغات أو تناصٍّ أو غير ذلك مما يتناسب مع دراسة مدائحه من حيث الصور والمعاني.

وحسب سياق البحث فقد تضمن المحتويات الآتية :

١. مقدمة .
٢. مدخل .
٣. المبحث الأول : مدائحه في صلاح الدين الأيوبي .
٤. المبحث الثاني : فنية التصوير في مدائحه لصلاح الدين .
٥. خاتمة تتضمن نتائج البحث .
٦. الهوامش
٧. المصادر والمراجع .

مدخل :

ابن سناء الملك شاعر من أهم شعراء مصر في العصر الأيوبي، نشأ في بيت ثراء وأدب بمصر " ولد في مصر سنة ٥٥٠ هجرية [١] وقيل ٥٤٥ [٢] وتوفي ٦٠٨ هجرية " ويذكر العماد الأصفهاني في خريدته : " كنت عند القاضي الفاضل في خيمته بمرج الدلهمية ثامن عشر من ذي القعدة سنة سبعين، وأطلعني على قصيدة له كتبها في مصر، وذكر أن سنَّه لم تبلغ إلا عشرين سنة " [٣] وهذا يؤكد أن ميلاده كان سنة ٥٥٠ هـ على خلاف رأي الزركلي الذي يرى أنه ولد ٥٤٥ هـ .. شغف أبوه بحب الأدب واقتناء كتبه، وبشعراء عصره، وعرف جده بالغنى والنعمة " إن سناء الملك جد شاعرنا الذي يسمى (رزان) كان يشتغل في تغيير النقود في القاهرة "٤ وقد نشأ على تلقي دروس اللغة والنحو والأدب على يد كبار أساتذة اللغة والنحو في عصره كعبد الله بن بري السلفي عالم الحديث المشهور بالإسكندرية ٥، أما أستاذه الحقيقي الذي يدين له بمكانته الأدبية صديق والده ومقربه من صلاح الدين الأيوبي فهو القاضي الفاضل الذي اعتبره ابنه وتبنى موهبته الأدبية بالصقل والتهذيب وليس من الغريب بعد ذلك أن يمدحه ابن سناء الملك بسبع وثلاثين قصيدة من بين خمس وسبعين قصيدة نظمها في غرض المديح .

ولعل دماثة أخلاق ابن سناء الملك وشاعريته وذكاءه كانت سببًا في ذلك " كان وافر السعادة محظوظًا في الدنيا ....أحبه أهل الدولة لدماثة كانت فيه، وحسن عشرة وتودد فسار له ذكر جميل " [٦] " كان بينه وبين القاضي الفاضل بالبيت الأيوبي أثر بارز في تطلع ابن سناء إلى الاتصال بالأمراء والوزراء الأيوبيين، وساعدته شاعريته على ذلك فمدح من السلطان صلاح الدين الأيوبي وولاه الملك الكامل ديوان الجيش سنة ٦٠٦هـ " [٧]

ويبدو أن شاعرية ابن سناء وجودة صناعته وتعمقه في المعاني، بل نظمه للموشحات ووضعه لقواعدها في كتابه "دار الطراز" هي التي مكنته من تلك المكانة الأدبية، إضافة إلى توريَاته التي كانت سمة لشعراء عصره .

المبحث الأول : مدائحه في صلاح الدين الأيوبي :

صلاح الدين الأيوبي ذلك البطل الذي وحد صفوف المسلمين وكسر شوكة الصليبيين واسترد بيت المقدس علاوة على كونه ذلك المتذوق للأدب فعندما يخلد إلى ذاته يتعطش لسماع الشعر ويجزل العطاء للشعراء المجيدين شأنه شأن الكثير من شعراء الدولة الأيوبية، فقد أشعلت الحروب الصليبية زناد شعر الحماسة والحث على الجهاد، وقد توفرت تلك الأسباب لصلاح الدين القائد العظيم .. ولابن سناء الملك بوصفه شاعرًا مسلمًا يحب ويفتخر ببطولة صلاح الدين ومن هنا خصه بالعديد من القصائد المدحية التي هي محل هذا البحث، ومن ذلك قوله يمدح صلاح الدين ويهنئه بفتح حلب في ٢٧ من صفر سنة ٥٧٩هـ والتي فتحها بعد أن عجز عماد الدين زنكي واليها عن الدفاع عنها، فهنأه بهذا الفتح قائلًا : [٨]

بدولة الترك عزّت ملّةُ العربِ وبابن أيوبَ ذلّت شيعةُ الصُّلبُ [٩]
وفي زمان ابن أيوبٍ غدت حلبٌ من أرض مصرَ وعادت من حلبِ
ولابن أيوب دانت كلُّ مملكة بالصَّفح والصُّلح أو بالحربِ والحَرَبِ
مظفَّرُ النصر، منعوتٌ بهمتـهِ إلـى الـعزائم، مدلولُ على الغلبِ

إلى قوله :

ولو أتى أسدُ الأبراج منتصرًا خارت قوائمه عنها ولم يَثِبِ
جليسة النجم في أعلى منازلهَ وطالما غاب عنها النجم لم تَغِبِ
تُلقي إذا عطشت والبرقُ أرشية كواكب الدّلو في بئرٍ من السحبِ [١٠]
كلُّ القلاع تروم السحبَ في صَعَد إلا العواصمَ تبغي السُّحبَ في صببِ
حتى أتى من منال النجم مطلبهُ يا طالبَ النجم قد أوغلت في طلبِ
من لو أبى الفلكُ الدوارُ طاعته لصيَّر الرأسَ منه موضعَ الذَّنبِ
أتى إليها يقودُ البحرَ مُلتطمًا والبيضُ كالموج والبيضاتُ كالحببِ [١١]

يتجلى من الأبيات السابقة إلحاح فكرة الوحدة الإسلامية والقومية العربية التي كان الصراع الصليبي الغربي مع المسلمين من أهم دوافع الحث عليها والتمسك بها ن ولذا أوجبت هذه الحروب الصليبية تمجيد بطولات صلاح الدين ؛ فابن سناء الملك في الأبيات السابقة يمدحه بضم دمشق إلى مصر، فقد أصبحت ـ بفضل بطولاته في الحرب أو السلم ـ كل الممالك خاضعة له، والقدر المحتوم والأرض والأفلاك معه، وابيضت رايات النصر به بعد أن خضعت له كل الممالك، فلا الدهر ولا الأبراج بمقدورها أن تمنع ابن أيوب (صلاح الدين) عن انتصارته، لأن فتح القلاع والعواصم لا يكون إلا بالصبب أي والقوة، لدرجة أن النجوم لو خالفت خوضه للمعركة لأبدلَ خلقتها، فجعل الرأس مكان الذنب ! وفي هذا المعنى تناص مع قصيدة أبي تمام التي مدح بها الخليفة المعتصم بقوله:

السيف أصدق إنباءً من الكتبِ في حده الحدُ بين الجد واللعبِ [١٢]

فعلّل أبو تمام قوله الذي قد يصدم العامَّة بأن حدَّ السيف كذَّب تخرصات المنجمين، وبرهن ابن سناء الملك قوله بأن الأبراج تخور قواها فيركع (أسدها) أمام قوة صلاح الدين "وإن كثيرًا من تخرصات المتنبئين التي تنكشف عن عكس ما أخبرت به وعندئذٍ يصبح المنجمون هدفًا للسخرية من الشعراء " [١٣]

ولعل هذا التأثر جاء من شيوع مذهب أبي تمام بمصر، فقد " التحم الفن البديعي بفن أبي تمام الذي تأثر بالفن البديعي في الشعر المصري أثناء إقامته بمصر في بداياته الأدبية." [١٤] إضافة لتأثره بأستاذه القاضي الفاضل الذي نسب له مذهب البديع :" وهذا الضرب من الشعر احتفال ظاهر بالأفكار وعناية تامة بتصوير العواطف والمشاعر التي ينفعل بها الناس انفعالًا لا تكلف فيه . " [١٥]

ويستطرد في وصف قوة صلاح الدين فقد أتى والبحر أمواجه عالية والبيض متلاحقة الضرب كالأمواج فأصبحت حوذته كالحبب أي أظهر بطولته فأصبحت حلب في حوذته.

ويكمل قصيدته المدحية واصفًا صلاح الدين بكل صفات البطولة قائلًا :

تبدو الفوارس منه في سوابغها بين النقيضين من ماءٍ ومن لهبِ
مستلئمين ولولا أنهم حَفظوا عوائد الحربِ لاستغنوا عن اليلبِ [١٦]
جمالهم من مغازيهم إذا قفلوا حمالة السَّبي، لا حمالة الحطبِ [١٧]
فطاف منها بركنٍ لا يُقبِّلهُ إلَّا أسنّة أطراف القنا السلبِ [١٨]

ومن مدائحه في صلاح الدين الأيوبي تلك القصيدة التي قيل إنها نظمت في عام ٥٨١ وكان صلاح الدين مريضًا وبعث بها إلى القاضي الفاضل ليقدمها إلى صلاح الدين وهو بدمشق فأخر إنفاذها إليه لمرضه، فلما عوفي هنأه ابن سناء بعافيته .. فقال :

أمجلس لهوى ليس منكَ مجلسُ لأوحشتَ لمَّا غاب عنك مُؤنِسُ
وما كانَ ليلي فيك بالبدرِ مُقمرًا ولكنَّه من مُخجل الشمس مُشمسُ
وكم قال بدرُ التّمّ ما أنا نيِّرٌ لديه، وظبيُ الرّملِ ما أنا ألعسُ
وبي مَلكُ الحسن الذي الجسمُ قصره وقلبي له في ذلك القصر مجلسُ
وحبّةُ قلبي والشَّغافُ سريره وسرَّتهُ تُخفي وتُحمي وتُحرَسُ

ويحجبُ طرفي أن يراه تكبُّرًا ولولاه ما أجلسته حيثُ يجلسُ
يصرِّفُ أمري جَوره فبأمره ترى الصبَّ يفنى والصبابة تُحبسُ
وظنـــي من الأيام أن عيونها بمزعَمِ طرفي أنها ليس تنعَسُ
وحلَّفنـي أن لا أنام فزادهُ تبرُّع طرفي أنَّه ليس ينعَسُ [١٩]

تجلي في الأبيات السابقة استخدام المعجم الغزلي في مديح صلاح الدين، ويظهر ذلك في تصريفه أمره وجوره وفناء الصب وطرفه الذي لا ينعس، واستعان بمفردات منها : (البدر،الشمس، الحسن،القلب، الشغاف،الصب،الصبابة) وكلها مفردات للمقدمات الغزلية شأنه في ذلك شأن فحول الشعراء في العصر العباسي كالبحتري وأبي تمام والمتنبي وغيرهم.

ومدائح ابن سناء الملك لم يقتصر معجمها على الاعتماد على المعجم الغزلي بل كان بها أحيانًا معانٍ ترفع صلاح الدين لمراتب الألوهية، من ذلك قوله :

قد ملكت البلادَ شرقًا وغربًا وحويت الآفاقَ سهلًا وحزنًا
واغتدى الوصفُ عن علاك حسيرا أيُّ لفظٍ يُقالُ أو أي معنى
وسمعنا الإلـــه قال : أطيعـو هُ ، سمعنا لربنـــا وأطعنـا [٢٠]

ولقد كان هذا البيت الأخير سببًا في اتهامه بالتشيع، بل باتهامه بأنه (كان غاليًا في التشيع) [٢١] وقد تبع الصفدي في كتابه "جيش التوشيح " هذا الرأي إلا أن الكثير من المحدثين دفعوا عنه هذا المذهب، ومنهم الدكتور محمد حسين كامل عنه بقوله : (إن أفراد أسرة ابن سناء الملك كانوا من رجال دواوين الفاطميين وكانوا يتمذهبون بالتشيع : أسوة بغيرهم من رجال الدولة الفاطمية، أما ابن سناء نفسه فقد كان على مذهب أهل الجماعة والسنة .) [٢٢] وكذلك د. شوقي ضيف في كتابه " تاريخ الأدب عصر الدول والإمارات مصر " فيرى أنه لو كان شيعيًا ما نال حظوة صلاح الدين وقربه منه ورفعه في المناصب.

والراجح عند الباحثة أنه كان على مذهب أهل السنة والجماعة ليس فقط لأن صلاح الدين كان محاربًا لكل آثار المذهب الشيعي وبنائه للخانقاهات والمدارس السنية " إن صلاح الدين كان يأخذ بالشبهة من يلوح عليه أنه متشيع ولو كان سنيًا، فقد قضى على عمارة اليمني لممالأته أهل الشيعة على الرغم من أنه سني ..... بينما حظي ابن سناء بكثير من خلع الشرف من صلاح الدين وخلفائه في مصر ." [٢٣] بل لأن والده ـ أيضًا ـ كان حريصًا على تلقينه وتعليمه المذهب السني منذ نعومة أظافره فقد أرسله إلى العالم الحافظ السلفي لتلقينه الحديث .

والقارئ لشعر المديح في العصر الأيوبي يلمح الكثير من المصطلحات الشيعية فيه ليس لأن الشعراء كانوا شيعة، بل لأن الرواسب الشيعية ظلت موجودة عندهم في اللاوعي، ذلك لأن التشيع عند الشعب المصري لم يكن مذهبًا دينيًا اثنا عشريٍّ أو زيديًا أو رافضيًا أو غير ذلك وإنما اقتصر على حب آل البيت الذي ما زلنا حتى اليوم نلمسه في رجل الشارع العادي . وربما لجأ ابن سناء الملك وغيره من الشعراء إلى مثل هذه المبالغات لا لتأثرهم بالشيعة ولكن بسبب القيم الجمالية السائدة في ذلك العصر من مبالغة في الصنعة كالطباق والجناس والتورية والتأثر بمصطلحات علوم الحديث والفقه والفلك والرياضيات والاقتباس منها في أشعار الشعراء ونشاط حركة التأليف في العصر الأيوبي في النثر الأدبي والفنون البلاغية وغير ذلك .

وربما كانت هذه المبالغة ـ وهو الأرجح ـ نابعة من فرط حبه وإيمانه ببطولات صلاح الدين الذي أعاد للعرب والمسلمين عزتهم وكرامتهم بانتصاراته المتوالية على الصليبين وأنشأ المدارس السنية وشجع العلماء والأدباء وحرص على بث روح النهضة في كل المجالات رغم انشغاله بخوض المعارك وكفاحه في الدفاع عن ديار المسلمين ضد تلك الهجمات المتسترة بشعار الدين .. ولذلك نجده يتأثر بشعر المتنبي الذي أخلص في حبه لسيف الدولة ومدحه كبطل عربي حارب الروم وانتصر عليهم مرارا (وجد في حروبه

وانتصاراته ضد الروم والبدو الموضوع الذي يشغل به قصائده، فلم تعد كلامًا يقال، وإنما أصبحت ملاحم رائعة) [٢٤]

فلا عجب بعد ذلك أن نلمح تشابهًا بين تصوير ابن سناء الملك لجيش صلاح الدين بقوله :

لهُ جحفلٌ جرَّ القنا فتعثرت قنا الخطِّ إلا إنها ليس تنفَسُّ
وكلُّ حصانٍ بالحديدِ مُلثَّمٌ عليه كميّ بالحديدِ مُقـــلنَسُ [٢٥]

مع تصوير المتنبي لجنود سيف الدولة الحمداني : ٢٦

أتوكَ يجرونَ الحديدَ كأنهم سَرَوا بجيادٍ ما لهن قوائم

وهو لا يلتقي مع المتنبي فقط في هذا البيت حيث يمدح صلاح الدين بقوله : [٢٧]

تزاحمت الأبطالُ فيه فخُرِّقَت ثيابٌ لها من عهدِ داود تُلبَسُ

كما انه يمدح يمدح صلاح الدين بقوله : [٢٨]

يُرى جَمالًا في حَومةِ الحربِ ضاحكا فلا القلبُ منحوبٌ ولا الوجهُ عابسُ
أغارَ عبوسَ الوجهِ فيها جـوادُه ومن عَجبٍ أن الجوادَ يُعبِّسُ

فهو في ذلك يلتقي مع بيت المتني في مديحه لسيف الدولة الحمداني : [٢٩]

تمرُّ بك الأبطالُ كلمى هزيمةً ووجهُكَ وضّاح وثغرُك باسمُ

وهذا التلاقي نتج عن مخزون تمثله لدواوين السابقين خاصة المتنبي وهو ما أطلق عليه حديثَ التناص، والذي لا يدخل في باب السرقات الشعرية كتلك التي شغلت النقاد بين أبي تمام والبحتري .. ولذلك نجده في مدحه لصلاح الدين عند نزوله الكرك وفتح نابلس يقول:[٣٠]

لهُ صارمٌ يشفي بهِ الدّينُ صدرَهُ ويُنجزُ وعدَ النصرِ منه بلا مطلِ
فلا تحسبوا بالكفِّ جرَّدَ نصلَهُ و لكنَّهُ قد جرَّدَ الكفَّ بالنَّصلِ

فهو يلتقي مع المتنبي في قوله :

إذا ضربتَ في الحربِ بالسيفِ كفُّه تبينتَ أن السيفَ بالكفِّ يضربُ [٣١]

ومن مدائحه الرائعة لصلاح الدين والتي خلد كل منهما للآخر بها تلك التي هنأه بها عند موقعة حطين بقوله :

لستُ أدري بأيِّ فتحٍ تُهنَّا يا مُنيلَ الإسلامِ ما قد تمنى
أنهنِّيك إذ تملكت شامًا أم نهنيك إذ تملكت عدنا
قد ملكت الجنان قصرًا فقصرا إذ فتحت الشَّآم حِصنًا فحصنا
لك مدحٌ فوق السموات ينشا ومحلٌّ فوق الأسنة يُبنى
حملوا كالجبال عظمًا ولكن جعلتها حملاتُ خيلك عهنا
لم تلاق الجيوش منهم ولكنـ ـك لاقيتهم بلادا ومُدنا
وتصيَّدتَهم بحلقة صيدٍ تجمع الليثَ والغزال الأغنَّا [٣٢]

لقد أبدع ابن سناء الملك في تصوير الخراب والهزيمة الساحقة التي ألحقها صلاح الدين بالصليبين ؛ فهنأه لفتحه الشام وعدن حصنًا بعد حصن، فمدحُه نشأ في السماء لأنه بني بأسنة الرماح ـ والمقصود حروبه التي انتصر فيها ـ مجدا تمناه الإسلام رغم أن جيوشهم كانت جرارة كثيفة كالجبال فجعلتها كالصوف المنفوش، وهنا تظهر ثقافة الشاعر الدينية وتأثره بقوله تعالى : (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) (سورة القارعة : آية ٥)

وتأتي الصور المبتكرة فالبطل لم يلق الجيوش وإنما لاقى بلادًا ومدنًا، فهو صائد ماهر تصيد كل قوادهم وجنودهم وفتح المدن مدينة بعد مدينة .

وقال يمدح الملك الناصر صلاح الدين ويذكر نزوله الكرك وفتحه نابلس :

إذا راسَلَ الأعداءَ يومًا فإنما كتائبُهُ كالكُتبِ والخيلُ كالرُّسلِ
له صارمٌ يَشفَي به الدينُ صدرَه ويُنجزُ وعدَ النَّصرِ منه بلا مَطلِ

يُغيبُ عنا لونَه بنجيعهِ فما يتحلى سيفُه حُلَةَ الصَّقلِ
فلا تحسبوا بالكف جرد نصله ولكنه قد جردَ الكفَّ بالنَّصلِ

إلى قوله :

هل الكرك الثكلى بأولادها انتهت عن النسلِ مما جُرِّعَتهُ من الثُّكلِ
وكانوا لها كالعِقد إلَّا أنَّه وهَي وأضحى لها جيشُ ابن أيوبش كالغُلِّ
أتاهم بمثل الرملش يَثْقُلُ خيلهم إلى الأفق ما فوقَ الطريق من الرَّملِ
عساكرُ أرواحُ العساكرِ شِربُها وليس لها غيرُ الفوارس من أكلِ
وما طالَ دِرع الدِّمْر منهم تحَصُّنا ولكن ليغدو طرفُهُ منه في جلِّ [٣٣]

فهو يضفي على حرب صلاح الدين وانتصاراته قدسية دينية فحربه ليست إلا لرفعة الدين

وحمله :

ويحملها مَن حمَّلَ الدينَ كلَّه عليه وما يشكو سوى خفَّةِ الكُلِّ

لقد كان ابن سناء يؤمن ببطولة صلاح الدين الأيوبي الذي حارب من أجل الإسلام ولعله حينما نظم مدائحه تلك كانت صورة المقارنة حاضرة في ذهنه بين حبه للإسلام والمسلمين، وبين أولئك السفاحين المجرمين الذين رسموا في أذهانهم صورة للشرق الحالم المليء بالكنوز والخيرات، شرق الغناء والحب والشرب، فتستروا بالدين لسلب خيراته، ونهب ثرواته، وجاءوا بجيوش جرارة من بسطاء شعوبهم فلاحين وعمالًا، كانوا يباعون وأراضيهم، لا يملكون قوت يومهم، يرسفون في قيود الذل والجوع والعطش، فأتوا معهم ربما تتحقق أحلامهم، ويعودون لآلهم بالمال الوفير . وشتان بين الصورتين : محبٌ لدينه وطامع فيما عند الغير !!

ومن الصور البديعة وصفُه جنود المسلمين ـ جنود صللاح الدين ـ بأنهم يشربون أرواح جنود العدا وليس لهم مشرب غيرها، ويأكلون لحومهم وقياسًا فليس لهم مأكل غيرها!

عساكرُ أرواحُ العساكرِ شِربُها وليس لها غيرُ الفوارس من أكلِ

و إن كنا قد أوردنا الكثير من الصور المقتبسة من فحول شعراء العصر العباسي بدءًا بأبي تمام، وانتهاءً بأبي فراس والمتنبي ، فإن ذلك لا يعني خلو شعر ابن سناء من الجدة والابتكار فهناك العديد من الصور التي تنبئ بذلك .من ذلك تصويره للصليبيين الذين

لم يشرقوا بالماء والريق وإنما شرقوا عندما رأوا الجيوش الكثيفة من فوارس ورجَّل، ولما شبت الحرب بالسيوف والرماح غلت دماؤهم كالماء،فلم تغمد سيوفك عنهم فيموتون حاملي الصليب (يقصد أنهم تستروا بالدين لتحقيق أغراض استعمارية) إذ يقول :

وما شرقوا بالماء والرِّيق إذا رأوْا جيوشَكَ لكن بالفوارس والرَّجلِ
شببتَ وقودَ الحربِ بالبيض والقنا عليهم فقد أضحت دماؤهمُ تغلي
وما أغْمِدت عنهم سيوفُك أو أتت على الغِرِّ والشيخ المُغَفَّل والكهلِ
يعانقُ في قتلاهُمُ فيه عابدًا لصليب- بلا حُبِّ له -عابد العجلِ ٣٤

والقارئ للنماذج السابقة يجدها ليست معبرة فقط عن مهارات الشاعر وملكاته الفنية التي وضعته في مصاف كبار الشعراء في عصر بات كلًّا على إبداعات الشعراء السابقين فحسب إنما يخلص منها إلى عدة نتائج :

أولًا : شيوع روح الجهاد في تلك المدائح ممثلة في معاني القوة والحماسة، وتكرار مفردات معجمية تتناسب مع تلك النبرة الحماسية فقد ذكر كل ما يتعلق بأدوات الحرب مثل : (النصل - الصارم - البيض - القنا - السيوف - الصقل - القوس) ولا جهاد بغير جيوش وكتائب، وجحافل، ورايات للنصر، وخيول تومئ بشجاعة وقوة فرسانها .

وهذا ما جعل الشاعر يحرص على الموسيقى والقوافي الرنانة التي تتناسب والحماسة .

ثانيًا : جاء وصف الشاعر الأعداء بالأبطال ولكن كلمى ومهزومين ـ غالبًا ـ ليرسم صورًا مبينة للبطل الحقيقي صلاح الدين عن طريق المقابلة :

تزاحمت الأبطال كلمى فخرقت ثياب لها من عهد داود يلبس

وقوله :

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

وهم ليسوا كلمى ـ ابتداءً ـ فلذلك هُزموا، ولكنهم كلمى هزيمته، فأضاف جراحهم إلى الهزيمة التي ألحقهم إياها صلاح الدين .

ثالثًا : البساطة في التعبير، وسلاسة الألفاظ، فتكاد تنأى به عن وحشي الكلام وغريب الألفاظ، فشعره مصفى من غموض يكدره .

رابعًا : ذهب الباحثون إلى خلو الأدب العربي من شعر الملاحم التي عُرفت عند اليونان قديمًا كالإلياذة والأدويسيا وأن ما كان عند العرب من ملاحم شعبية لا ترقى إليها، وإن كانت الملحمة قصة بطولة تُحكى شعرًا فإننا لا نعدم بعض هذه المقومات في مطولات ابن سناء الملك في تصويره لبطولات صلاح الدين، ولا نفتقد إلا الخوارق التي أضفاها اليونان على أبطالهم وآلهتهم لمجتمعات فطرية كانت تخلط بين الواقع والخيال، والتي لا يقبلها العقل البشري .

رابعًا : كان شعر ابن سناء مرآة للحياة البلاغية في عصره حيث غلبة الترادف والتورية والكناية والاستعارة والتشبيه، وانتشار والمصطلحات العلمية .

خامسًا : إذا كان العرب قد عنوا قديمًا برواية الشعر الجاهلي ليسجل حروبهم وانتصاراتهم ومآثرهم ويدون مثالب أعدائهم، فإن شعر ابن سناء الملك يعد حقًا سجلًا تاريخيًا لتلك الحقبة الأيوبية، حيث لم يترك فتحًا ولا حربًا ولا نصرًا لأبطال لمسلمين ـ ولا سيما صلاح الدين ـ إلا وأبدع في وصفه .

المبحث الثاني : فنية التصوير في مدائحه لصلاح الدين :

تظل قيمة الشاعر في إلباس ألفاظه حللًا من الصور والأخيلة من خلال إقامة علاقات فنية وتركيبية جديدة ورسم لوحات حية لما يريد التعبير عنه " حيث تعتبر الصورة الفنية الوسيلة الأولى للتعبير بما يتميز به من تجارب شعرية تمتزج فيها الأفكار والمشاعر " [٣٥]. وشاعرنا تمثل دواوين السابقين وتفهم مذاهبهم الأدبية كأبي تمام الذي أجاد التجسيم والتدبيج والمشاكلة والجمع بين نوافر الأضداد بخلقه نوعًا من التلوين العقلي الذي يعيد تركيب العلاقات بين المعاني، أو بمعنى آخر كما قال دكتور شوقي ضيف :" يضع الشعر في ربقة المنطق " وقد تمثل كذلك شعر البحتري رائد مدرسة عمود الشعرالذي اعتمد على الطبع والجزالة، فلم يُعنَ بالفلسفة والمنطق في شعره، وعوض ذلك بجمال الموسيقى الداخلية والخارجية في شعره حيث القوافي الرنانة والملائمة بين السكنات والحركات والكلمات .. فيأتي ابن سناء الملك ويأخذ في شعره من كلٍّ بحظ، وقد عرض هذا البحث لبعض الأبيات التي بها تناص مع شعر أبي تمام، ولعله تأثر به بالجمع بين الأضداد والتي تبدو من خلال عقده مقارنة بين بساله صلاح الدين في الحروب وبين أولئك الملوك النوم المتخاذلين عن الدفاع عن المسلمين وأراضيه كقوله :

ملكت أقاليم الملوك وإنما سهرت وأملاك الأقاليم نُوَّمُ
وجيشُ به أسد الكريهة غضب وإن شئت عقبان المنية حوَّمُ
يعفون عن كسب المغانم في الوغى فليس لهم إلا الفوارس مغنم
وأنت الذي هذبتهم فتهذبوا وأنت الذي فهَّمتهم فتفهموا
وإنهم يوم الوغى بك أقدموا وأعداؤهم يوم الوغى بك أحجموا
وما يعصم الكفار عنك حصونهم ولا شيء بعد الله غيرك يعصم [٣٦]

فالمقابلة هنا ضمنية بين كلا الموقفين من الحرب : موقف ملك شجاع يذود عن البلاد ضد الصليبيين ومواقف آخرين نوم، وبين إقدامه في الوغى وفرار الأعداء أمامه. أما البحتري الذي كان يكتفي بالقليل من ألوان البديع في شعره فيذكر الكلمة وما يطابقها ولا

يلون بديعه بالمنطق، فنرى ابن سناء الملك يحاكي أسلوبه في بعض مدائحه لصلاح الدين ويكتفي من ألوان البديع بالمزاوجة أو الطباق أو الجناس أو الطباق كقوله :

أرض الجزيرة لم تظفر ممالكها بمـالك فطـن أو سـائس دربِ
حتى أتاها صلاح الدين فانصلحتْ من الفساد كما صحت من الوصب
واستعمل الجد فيها غير مكترث بالجد حتى كأن الجدَّ كاللعب [٣٧]

فالمقابلة في البيتين الثاني والثالث جلية المعنى وبسيطة ليس بها ذلك الغموض الذي ميز شعر أبي تمام، وليس هذا عيبًا في شعر ابن سناء الملك إنما ميزة ميزته عن شعراء عصره الذين غرقوا في ألوان البديع المتكلف.

وفي عصر تشوبه حروب عنصرية ودينية تتلون الصور بالبطولة وإلهاب الحماسة والحث على الجهاد " ومع أثر الحروب الصليبية في إثارة النخوة والحمية وظهور شعر المقاومة كان لظهور صلاح الدين أيضًا أثر واضح في إيقاظ الوعي الشعبي بما اشتهر به من صفات إسلامية وعبقرية عسكرية وانتصارات عظيمة على الأعداء، جعلته محل إعجاب وتقدير، ومثلًا يحتذى به . " ٣٨ لا سيما في عصر سيطر الصليبيون على عدد غير قليل من المدن الإسلامية فهب ابن سناء وغيره من الشعراء للحث على المقاومة " وهكذا دفعت العربَ والمسلمين الحسرةُ والغيظُ والشعور بالآلام إلى محاولة المقاومة والدفاع، ورد المغتصبين بالدعوة إلى الاتحاد والجهاد " ٣٩

ارتبط تصوير ابن سناء لصلاح الدين بإضفاء القدسية عليه فهو بمثابة يوسف النبي في مصر، فإن كان في ذلك شيء من المبالغة التي هي من سمات عصره البلاغية فإن الشاعر قد استعان بالتورية في قوله (مثل يوسف) فقد يفهم البعض انه يقصد سيدنا يوسفَ عليه السلام، فإن أخذ عليه تلك المبالغة دافع الشاعر عن نفسه بانه يقصد يوسف البطل ـ صلاح الدين نفسه ـ المُسَمَّى بيوسف .. إذ يقول :

ومن كان في هذا الورى مثل يوسفِ ومن أين هذا المثلُ كان بلا مثلُ [٤٠]

وتارة أخرى يضفي عليه هيبة الأبطال حيث تخر له الأملاك ذلًا فكلهم غلمانه :

تخرُّ له الأمـلاكُ ذلًا وإنمـا تعـزِّ إذا ذلت لديـه من الذُّلِ
أعاديـه من غلمـانه في بلادهم يُصـرِّفهم بيـن الولاية والعزلِّ
وأنفسـهم عاريـةٌ منـه عنـدهم متى ما أراد استرجعتها يدُ القتلِ

لم يسقط ابن سناء الملك في البديع المتكلف الذي شاع في عصره،لكن تمثله لشعر أبي تمام جعله يتأتاه كجزء من المعاني والأفكار قائم على الترابط والتوثيق بينها مثل: (ذلًا – تعزّ، والولاية – العزل) وكأنه كان دائم الاستحضار لديوان أبي تمام حيث التلوين العقلي بالمنطق فهو يصرف أعداءه كيفما يشاء لأنهم غلمانه، ومن ثم فنفوسهم عارية أمامه بعد الهزيمة .

ويتردد صدى البطولة في مديحه لصلاح الدين، فسُمُوُّه فوق السماء، ومحلُّه فوق الأسنة من بطولاته المتعددة في الحروب :

لك مدحُ فوق السموات ينشا ومحـلُّ فوق الأسـنة يُبنى [٤١]

وهو لا يحارب وحده حينما كسر الفرنج وملك بلاد الشام إنما أيده الله بجنود من الملائكة فرادى ومثنى :

ملكُ جنـده ملائكـةُ اللـ ـه فُرادى جاءت إليه ومَثنى
كم تأتّى النصرُ العزيزُعن الشـ ـام ولما نهضـتَ لم يتـأنَّ
قد تعنيتَّ حين أحببت وجهَ اللـ ـه بالحـربِ والمحـبُّ مُعنَّـى

فوصف النصر بالعزيز مدعاة للقوة والعزة والأبيات، ومما أضفى الشعور بالقوة في هذه الأبيات التلوين الموسيقي النابع من التجنيس بين الكلمات (تأتّى – يتأنى، تعنّيت – مُعنَّى) وصوره بالمحب الذي يعاني في حبه، ولكنه ليس ذلك الحب البشري الذي طالما تغنى به المحبون إنما هو حب لوجه الله تعالى .

ويستمر في رسم صور لانتصاراته تصل إلى حد المبالغة التي تقرب إلى أذهاننا قصائد المتنبي في وصف سيف الدولة الحمداني، وأبي تمام في وصف المعتصم في فتح عمورية حيث ترك صلاح الدين الكرك ثكلى بأولادها فانتهت من النسل، فقد كانوا كالعقد إلى أن غلهم بما لديه من خيول وجنود كالرمال من كثرتها، وكما سبقت الإشارة فقد فشرب عساكره أرواح جنود الأعداء وأكلوا لحوم فوارسهم :

هل الكرك الثكلى بأولادها انتهت عن النسلِ مما جُرَّعَته من الثكل
أتاهم بمثلِ الرملِ ينقل خيلهم إلى الأفق ما فوقَ الطريق من الرملِ
عساكرُ أرواحُ العساكرِ شِربُها وليس لها غيرُ الفوارس من أكلِ [٤٢]

ولئن سبق الدفاع عن مبالغات الشاعر عند ذكر يوسف فإنه في تارة أخرى يصوره ـ مُصِرًّا على ذلك ـ بسيدنا يوسف في سياسته لمصر ويلح على مديحه بالعدل، ويكرر هذا الوصف مرتين ببيت واحد، بل إنه يتجاوز ذلك فيصفه بيوسف بن يعقوب وعيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ معًا، فقال :

أعدت إلى مصر سياسة يوسفٍ وجددت فيها من سميك موسما
فلم تُرَ إلا بهجةُ العدلِ منكما ولم تُرَ إلا سنةُ العدل عنكما
كما أنت فيها عادلٌ كان عادلا كما أنت فيها مُنعِمٌ كان مُنعِما
وأحييت فيها الدين بعد مماته فأنت ابنُ يعقوبٍ وأنت ابنُ مَريما ٤٣

فقد ساس مصر على نهج سميِّه ـ يوسف ـ عليه السلام، فكانا رمزًا للعدل، كما أحيا الدين في مصر بمحاربته معاقل الشيعة وإنشاء الخانقاهات والمدارس الفقهية لنشر المذاهب السنية فصار بذلك مشابهًا لعيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ في إحيائه الموتى .. ورغم التحفظ على الأبيات من الناحية الدينية إلا أن الشاعر قصد من وراء ذلك إيصال معنى يرى أنه لم يكن ليصل إلا بهذه الطريقة !

ولعل التجسيم والتدبيج للصور والمعاني أهم ما ميز صُوَرَه المدحية لصلاح الدين فالبيت الذي يمدح فيه صلاح الدين يُتوشح ويُتزين باسمه وتضفى عليه القدسية، فقد أشاد دارًا للجهاد جعلت الرمح يبني، والحسام يهندس .. فيقول :

وماذا يقول المدحُ فيه ومدحه بآثاره يُروى ويُقرا ويُدرَسُ
إذا قيل بيتٌ قد توشحَّ باسمه الـ ـعظيم فذاك البيتُ بيتٌ مُقدسُ
ومن شاد دارًا للجهاد فأصبحت بها الرمح يَبني والحسامُ يُهندسُ ٤٤

ويستمر الشاعر في رسم صور حية للمعركة حيث تزاحم الأبطال الذين هزمه صلاح الدين رغم ارتدائهم دروعًا منذ أيام سيدنا داوود ـ عليه السلام ـ كناية عن خبراتهم ومِراسهم على الحرب فيشتد الوطيس ويعلو غبار المعركة حتى تشتكي أسنة الرماح ليأتي لنا بصورة رائعة فالموت لا يتنفس، والشمس تموت وترمس خوفًا من بطلنا، فيقول :

تزاحمت الأبطال فيه فَخُرِّقت ثيابٌ لها من عهد داود تلبسُ
وأظلمَ فيها النّقعُ واشتكت الظُّبى فأصبح فيها الموتُ لا يتنفسُ
ومن خوفه الشمسُ المنيرةُ في الضحى تموتُ وفي نقع الحوافرِ تُرمَسُ ٤٥

ويكثر تضمين ابن سناء الملك في شعر ه آيات القرآن والأحاديث النبوية ؛ ففي الأبيات السابقة تضمين لقوله تعالى : "أن اعمل سابغاتٍ وقدِّر في السَّردِ واعملوا صالحًا إني بما تعملون بصيرٌ " (سورة سبأ، آية: ١١)، وقد يُؤخذ على الشاعر قوله بموت الموت، ذلك أن موت الموت هو الحياة الأبدية، إلا أنه إنما قصد إلى بيان هول الموقف الذي يُميت الشمس ويدفنها وهي في زهو ضحاها، فقد لا يفطِن القارئ العجِل إلى المعنى الحقيقي من موت الموت فيتفق مع الشاعر فيما قصدَ .

وفي بيت لاحق بالقصيدة يصور أعداءه بأنهم لا يستحون ويقولون ما لا يفعلون .. فيقول :

يقولون ما لا يفعلون أما استحَوا ومن يلقَ ما يلقَونَهُ كيفَ ينبسُ ؟

فهذا البيت به تضمين لقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لمَ تقولون ما لاتفعلون . كَبُرَ مَقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون " (سورة الصف، آية :١،٢) .

وهو لا يكتفي بتضمين الآيات بل قد يضمن بالأحاديث فيقول في نفس سينيته :

وإنَّي لَيَ البُشرى وإنَّ فراستي تصــحُّ ؛ لأني مؤمـنٌ أتفَـرَّسُ

وهو تضمين لقوله صلى الله عليه وسلم :"اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله " [٤٦]

وهناك سمات أخرى لونت شعر ابن سناء الملك،كالتلاعب بالألفاظ من تورية وبديع وغير ذالك مما شاع في عصره، فهو يختتم تلك القصيدة بقوله :

كلانا بديعُ الصُّنع مَدحي مُطبَّقُ وجأشك في قهر الملوكِ مُجَنَّسُ

فمطبق هنا تورية ـ بمعنى تضمين الكلام لوجهين من المعنى أحدهما قريب والآخر بعيد ـ فمطبق بالنسبة للشاعر تعني ذلك اللون البديعي الذي قصد به صنع الشاعر وهو الطباق، وبالنسبة للمدوح تعني المطابقة بين فعل الممدوح وما مُدح به . وكذلك كلمة مجنس فالوجه الأول من المعنى لها هو التجنيس أو الجناس الذي عهدناه في البلاغة، والوجه الثاني وهو المقصود مجانسة قهر صلاح الدين لفعال الأعداء، بمعنى كون الجزاء من جنس العمل.

ويظهر في أسلوب ابن سناء الملك تلمذته على القاضي الفاضل الذي أخذ أسلوب الكتابة عن ابن العميد وتوسع في التشبيه، والاستعارة، والغلو في التورية والجناس والطباق، وغير ذلك من ألوان البديع [٤٧] ؛ فاحتذى الشاعر حذو أستاذه .. ولذلك ينجح ابن سناء الملك في توشيح مديحه لصلاح الدين بألوان البديع المختلفة دون أن يغرق في الزخرف اللفظي المتكلف الذي وسم عصره بالانحدار فالبديع عنده جزء لا يتجزأ من المعاني، وهذا ما ميزه عن شعراء عصره ومن ذلك قوله :

يخفُّون جهلًا حين يحلُم قُدرةً ويَخفَون ذلًّا حين يبدو تعظُّما
إذا بخلوا أعطى وإن عاقبوا عفا وإن غدروا أوفى وإن هبطوا سَما
فسيرتُه لم تُبق في الأرض ظالمًا ونائِلُه لم يُبق في الخلق مُعدِما
له نائلٌ يسعى إلى كلِّ سائلٍ فيطلبه بالماءِ والزادِ أينما
وكم أفسدت أمواله قاصدًا له وقد يرجعُ الشيءُ الصحيحُ مسقما ٤٨

فالأبيات مليئة بالمقابلات مثل (يخفون ويبدو -ـ بخلوا وأعطى -ـ عاقبوا وعفا - هبطوا وسما - الصحيح ومسقما) وهذه الطباقات أحدثت حركة ديناميكية بين الفعل ونقيضه، فالعطاء والعفو والسمو والصحة كل تلك سلوكيات وصفات يتصف بها الفوارس ـ وعلى رأسهم صلاح الدين ـ مما يجعله وإياهم جديرين باستحقاق البطولة، فلا عجب ـ آنئذٍ ـ إن علمنا أن صلاح الدين ـ وهو قسيم هذا البحث ـ نال بفروسيته شهرة أسطورية ذاع صيتها حتى في أوربا، خاصة بعد استرداده بيت المقدس وهزيمته للصليبين، فقد رسم الأوربيون له صورة فارس تهابه الملوك وتقع في غرامه النساء "الصورة التي تكونت في أوربا عن البطل صلاح الدين الأيوبي،في أعقاب انتصاره على ملوك أوربا في الحروب الصليبية، فقد تكونت في الآداب الشعبية الأوربية في القرن الرابع عشر موجة من الحكايات الأسطورية في فرنسا وإسبانيا وإيطاليا،التي تصور صلاح الدين،وقد وصل إلى أوربا وأرسى سفنه على شاطئ براندي، ثم روما، ثم باريس حيث استقبله الأمراء استقبالًا حافلًا كما تحكي الأسطورة أن (الملك فيليب الثاني) ملك فرنسا كان غائبًا أثناء وصول صلاح الدين، فاستقبلته الملكة، التي وقعت أسيرة هواه من النظرة الأولى)[٤٩] ولا نبالغ إن قلنا إن مدائح ابن سناء الملك لصلاح الدين الأيوبي تتضمن ملامح من الشعر الملحمي الذي يحكي قصة بطولة تاريخية شعرًا مذكرًا لنا شعر المتنبي لسيف الدولة الحمداني بل أبعد من ذلك حيث يذكرنا بالملاحم الشعبية كملحمة "عنترة "و"سيف بن ذي يزن " و"البطال " تلك الملاحم الشعبية التي ظهرت في العصور الوسطى ولم تكتب بالفصحى "فقد كتبت بمزيج

من الفصحى والعامية وبعضها يتضمن أشعارًا أصيلة كما في سيرة عنترة [٥٠]." ولكن شاعرنا سجل هذه البطولات بالفصحى ليضيء بها تراثنا الشعري ممجدًا هذا البطل العظيم"

ولست بمعرض الحديث عن صلاح الدين في المقام الأول ـ فذلك ما يضطلع به بحوث التاريخ، إنما الحديث عن شاعرنا ـ ابن سناء الملك ـ الذي امتطى المذهب اللفظي في شعره ولكن ليس كشعراء عصره " فالمذهب اللفظي تجلى في تعمد أنواع البديع، وكانوا يرون فيه إرضاء مثقفي زمانهم أكثر من حرصهم على التأثير في نفوس الشعب، ويجدون في تكلف الأساليب اللفظية وحشوها بالشعوذة البيانية صيانة للأدب من المتطفلين عليه، ومظهرًا من مظاهر الأرستقراطية الأدبية التي ترفعهم عن عامة الناس " [٥١] فقد خلا شعره من تلك الشعوذة البيانية وإن جعل البديع مذهبه فهو غير متكلف وهذا ما رفعه بين شعراء عصره وأبلغه منزلة في مديح صلاح الدين وغيره من السلاطين، وبساطته في المعاني لم تهو بشعره إلى الهوة السحيقة التي تُدنيه من النثر،

فقد غلب على شعره الطبع ـ رغم إكثاره من البديع ؛ فقصائده تعد سجلًا تاريخيًا للأحداث والحروب التي درات في عصره، وكذلك يشتمُّ القارئ فيها ذلك اللون الشعري المسمى بشعر الجهاد ؛ فحينما يقارن بين شجاعته في الحروب وغيره من الملوك (النُّوَّم) إنما يريد أن يبث الحماسة في النفوس ويذكي الحمية في الصدور :

ملكت أقاليم الملوك وإنما سهرت وأملاك الأقاليم نُوَّمُ [٥٢]

وتبدو سجية الشاعر في ذلك مندفعا بحماسة المسلم الذي تذوق طعم النصر بهمَّة فارس واحد، فماذا لو انضم إليه النائمون من أدعياء الملك ؟

وهكذا تنوعت أساليب ابن سناء الملك الفنية في التعبير عن ممدوحه الذي أخلص في مدحه لكونه بطلًا قوميًا أعاد الكرامة للإسلام والمسلمين .

الخاتمة

من يقع على ديوان ابن سناء الملك ومدائحه لصلاح الدين الأيوبي يشعر أنه أمام سجل تاريخي لأهم الأحداث والحروب التي قام بها صلاح الدين في عصره بجانب عدة ملاحظات أخرى، منها :

أولًا : جاء شعر ابن سناء الملك ـ وإن كان في عصر الدويلات التي تكلف الشعراء فيها ألوان البديع المختلفة ـ خاليًا من البديع موظفًا لخدمة المعنى دون تكلف أو مبالغة رثة .

ثانيًا : بدت ثقافة شاعرنا واضحة في شعره ؛ حيث تمثل شعر السابقين عليه من العصر الذهبي للشعر وقد بدا ذلك جليًا من التناص الوارد بين بعض أبياته وأبيات السابقين من الشعراء وبخاصة أبو تمام وكذلك تأثره بكثير من آيات الذكر الحكيم،والأحاديث النبوية الشريفة .

ثالثًا : لم يعتمد الشاعر ـ فحسب ـ على ألوان البديع الشائعة في عصره والتلاعب بالألفاظ والتورية، وإنما كان للصورة والتدبيج والتجسيم ركن ركين في شعره .

رابعًا : صدر مديحه لصلاح الدين الأيوبي عن عاطفة صادقة كتلك التي كانت من المتنبي لسيف الدولة الحمداني، فجاءت قصائده أشبه بملاحم تغنى فيها بانتصارات صلاح الدين الأيوبي ومثلت شعر الجهاد والمقاومة التي خلدت بطولاته من جانب، وأشعلت الحماسة في نفوس المسلمين من جانب آخر، فأعادت إليهم ثقتهم في أنفسهم .

خامسًا : حرصه على إضفاء القدسية عند وصفه لصلاح الدين الأيوبي ؛ فالملائكة جنده، وسياسته سياسة سيدنا يوسف في مصر بعدله ومحاربته معاقل الشيعة ونشر المذهب السني، وقدرته كقدرة سيدنا عيسى عليه السلام في إحياء الموات .

سادسًا : نفي مذهب التشيع عن ابن سناء الملك رغم ظهور بعض المصطلحات الشيعية في شعره وذلك تماشيًا مع الذوق المصري الذي تعلق قلبه بآل البيت فحتى لما نشر الفاطميون مذهب الشيعة لم يكن المصريون من غلاة الشيعة، وإنما شغفت قلوبهم بحب آل

البيت، ولو كان ابن سناء الملك شيعيًا ما نال حظوة عند صلاح الدين الأيوبي بطل أهل السنة والجماعة.

سابعًا : كان ابن سناء الملك من أهم شعراء عصره الماضين على مذهب القاضي الفاضل أستاذ التأنق في عصره وأستاذه، إذ خلا شعره من المبالغات الممقوتة اللهم القليل النابع من تصوره لمكانة صلاح الدين التاريخية، فقد ملك شاعرنا أساليب الصنعة والجودة في التصوير .

Abstract

A picture of Salah al-Din al-Ayyubi in the poetry of Ibn Sana, the king (Analytical Critical Study)

By Hind Maher Abu Al-Atta Ibrahim

The Ayyub period is considered one of the ages that had scholars neglected between the golden ages of literature and criticism, I mean the pre-Islamic era and the era of Islam and the Umayyad and Abbasid, and modern times in its approach to people's lives and what it reflects from the reality of living, and the circumstances of that life helped to overlook it with the fragmentation of the kingdoms Islamism and the competition of princes - and even rivaled them, and in that darkness some stars waved from time to time, and she guided people to their rich heritage in order to be a guiding light to direct them to the straight path, and from these stars my choice fell on Ibn Sana Elmulk .The poet coincided with the reign of Salah al-Din, that knight who restored to the nation its glory with its victory over the Crusaders and the restoration of Al-Aqsa Mosque after long decades in their hold, and the Arabs alerted to its ancient past that deserves to be guided and followed its impact .. So the choice was made - in the papers of this research On the praises of Ibn Sana Elmulk , the king in Salah al-Din, for the most prominent literary and political renaissance of that era.

Keywords: Literature, photography, starring, sword, victory, intrepidness

الهوامش

[١] . البغدادي، هدية العارفين ٦/ ٥٠٦.
[٢] . الصفدي الوافي بالوفيات،٢٧/ ١٣٥
[٣] . الخريدة .ج١.ص٦٤-٦٥
[٤] . المصدر السابق ١٣٧/٢٧
٥ . انظر شوقي ضيف . الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص٤٩٥، طبعة دار المعارف . نقلًا عن الخريدة
٦ . ياقوت الحموي، معجم الأدباء ٧٠/ ١٩٧
٧ . الزركلي، الأعلام .٨ / ٧١
٨ . الديوان ص١-٤
٩ . الصُّلب : الصليبيون
١٠ . أرشية : جمع رشاء وهو حبل الدلو.
١١ . الديوان ص ٢٠٠ البيض : السيوف، والبيضات جمع بيضة وهي الحوذة .
١٢ . أبو تمام . الديوان . انظر قصيدته البائية ص٢٣
١٣ . الغباري .٢٠٠٣.ص٩٩
١٤ . د. عبد اللطيف حمزة . الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية ط الهيئة المصرية للكتاب . ص١٠٩.
١٥ . الروضتين ج٢. ص٧٣.

١٦ . اليلب : الدروع اليمنية من الجلوة
١٧ . إشارة إلى قوله تعالى : " وامرأته حمالة الحطب " سورة المسد : آية ٤
١٨ . الديوان ص ٢٠٠ وفي البيت الأخير إشارة إلى طواف صلاح الدين حول الجمال التي تحمل السبي كطواف المسلم حول البيت إلا أن أطراف الأسنة والقنا قد نابت عنه في تقبيلها .
١٩ . الديوان ص ٣٠٠
٢٠ . الديوان ص ٤٠١
٢١ . ابن سعيد .النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة، ص٢٧٤
٢٢ . د. محمد كامل حسين . دراسات في الشعر في مصر الأيوبيين . ط. ص١٢٢.
٢٣ . محمد إبراهيم نصر : ابن سناء الملك . ص٨٥ .
٢٤ . د. شوقي ضيف . الفن ومذاهبه في الشعر العربي . ط.دار المعارف . ص٣٠٦ .
٢٥ . ابن سناء الملك . الديوان . ص١٧٤
٢٦ . المتنبي . الديوان . ص٩٤.
٢٧ . ابن سناء الملك . الديوان . ص١٧٤
٢٨ . ابن سناء الملك الديوان ص ١٧٤
٢٩ . المتنبي . الديوان .ص٣٣
٣٠ . ابن سناء الملك . الديوان . ص٢٢٣
٣١ . المتنبي . الديوان .ص ٣٠٦
٣٢ . ابن سناء الملك . الديوان . ٢٩٠ الأغن : الذي يخرج صوته من خياشيمه
٣٣ . ابن سناء الملك . الديوان . ص ٢٢٢-٢٢٤
٣٤ . ابن سناء الملك . الديوان . ص٢٢٤
٣٥ . الصورة الفنية في شعر المقاومة عند ابن سناء الملك .ص٢٠٥.د. محمد موسى أبو جبل .ط المجلة العلمية لكلية الآداب . الناشر جامعة أسيوط .
٣٦ . الديوان ص٢٩٠-٢٩٣
٣٧ . الديوان ص١٢٥
٣٨ . النجوم الزاهرة ص١٠٧ ط٢ سنة ٢٠٠٠، والأدب في العصر الأيوبي ص٥٠ د. محمد زغلول سلام.
٣٩ . المصدر السابق ص١٨
٤٠ . الديوان ص٢٢٢. وردت هذه الأبيات في مديحه لصلاح الدين بعد نزوله الكرك فتحه نابلس .
٤١ . الديوان ص٥٣٨ . وقد نظم هذه القصيدة قبل فتح بيت المقدس .
٤٢ . الديوان ص ٢٢٢ .
٤٣ . الديوان ص٤٣٢.
٤٤ . الديوان ص ١٧٢
٤٥ . الديوان : ص١٧٣
٤٦ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد . ج٣ .ص١٩٢. وهو حديث إسناده ضعيف .
٤٧ . انظر محمد رجب البيومي . الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر . ص٥٦ .ط .سنة ١٩٨٠م .
٤٨ . الديوان ص ٢٧٠
٤٩ . انظر د. محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن . نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ط٣ ٢٠٠٤م . ص١٢.
٥٠ د. محمد مندور،الأدب وفنونه .نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع . ص٤ .
٥١ . جودت الركابي : الأدب من الانحدار إلى الازدهار. ص١٥ .
٥٢ . الديوان ص٢٩١.

المصادر والمراجع

١. البغدادي (إسماعيل محمد أمين مير سليم البابي) هدية العارفين ج٦ . تحقيق : أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى .
٢. البيومي (محمد رجب) الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر . طبعة سنة ١٩٨٠م .
٣. ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف) النجوم الزاهرة في حضرة القاهرة . طبعة مصر سنة ١٩٣٠م .

٤. أبو تمام (حبيب بن أوس الحارث الطائي) الديوان . شرح الخطيب التبريزي . تحقيق : محمد عبده عزام . القاهرة . طبعة دار المعارف .
٥. أبو جبل (محمد موسى) الصورة الفنية في شعر المقاومة عند ابن سناء الملك . طبعة المجلة العلمية لكلية الآداب . الناشر جامعة أسيوط .
٦. حسين (محمد كامل)، دراسات في الشعرفي مصر الأيوبيين . دار النشر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة .
٧. حمزة (عبداللطيف) الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية . طبعة الهيئة المصرية للكتاب .
٨. الحموي (أبو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله)، معجم الأدباء .
٩. الخطيب البغدادي (أحمد بن علي بن ثابت) تاريخ بغداد أو مدينة السلام، عدد الأجزاء ٢٤ . محفوظ بدار الكتب المصرية .
١٠. ابن خلكان (أبوالعباس شمس الدين أحمدبن محمد بن أبي بكر)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،لبنان . بيروت .طبعة دار صادر .
١١. الركابي (جودت) الأدب من الانحدار إلى الازدهار . القاهرة . طبعة دار المعارف .
١٢. الزركلي (خير الدين محمود بن محمد بن علي بن فارس)، الأعلام . طبعة بيروت – لبنان١٩٨٠م .دارالعلم للملايين .
١٣. ابن سناء الملك (هبة الله بن جعفر)، الديوان،تحقيق : محمد إبراهيم نصر – حسين نصار . قدم م للديوان د. عوض الغباري الناشر وزارة الثقافة المصرية دار الكاتب العربي سنة النشر ١٩٦٩.
١٤. أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل)، الروضتين . تحقيق إبراهيم شمس الدين . طبعة دار الكتب العلمية . سنة ٢٠٠٢م
١٥. الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك) بيروت – طبعة دار إحياء التراث .
١٦. الأصفهاني (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد)، خريدة القصر وجديدة العصر . القاهرة . طبعة ونشر لجنة التأليف والنشر.
١٧. ضيف (د. شوقي) الفن ومذاهبه في الشعر العربي . القاهرة . طبعة دار المعارف .
١٨. ضيف (د . شوقي) عصر الدول والإمارات مصر . القاهرة . طبعة دار المعارف .
١٩. المتنبي (أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي) الديوان . شرح أبي البقاء العكبري. ضبطه وصححه ووضع فهارسه : مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي . مطبعة مصطفي البابي الحلبي وأولاده بمصر . سنة ١٩٢٦م .
٢٠. مندور (محمد) الأدب وفنونه . طبعة نهضة مصر .
٢١. هلال (محمد غنيمي) الأدب المقارن، طبعة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع . الطبعة الثالثة .